



خطبة صلاة الجمعة 21 / 8 / 2015 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(القناعة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ مُّتَتِّلْ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبْ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السادسة والعشرون في سلسلة خطب عنوانها (فضيلة... أخلاق تعاملية)، بإمكانك التدريب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (القناعة)

متزوجة من طبيب دَينٍ فَتَيَّ يُعْرِفُهَا بالكلام الجميل، لكنها تطلب منه الطلاق وتعتذر إليه بأنها لا تستطيع حُمْلَ شَظَفِ العيش معه لأنَّ دخله لا يغطي متطلباتها التي تعودتها عند والدها....القناعة.

دُلّوه على عائلةٍ ليخطُبَ ابنتهم، والفتاةُ محققةٌ معظمَ المعايير العشرة الواردة في بحث اختيار الزوجة في الدورة التأهيلية للحياة الزوجية فهي مسلمةٌ صالحةٌ بنتٌ عائلةٍ خيرةٍ وعندها حياءٌ ونظافةٌ وطاعةٌ للزوج، وليست ذاتُ قرابةٍ قريبة، ولكنَّ جمالها دونَ المأمول بالنسبة له لأنه يبحث عن تجمع هذه الصفات وتكون جميلة فاتنة، ومن أجل هذا لم يُقدم على الزواج بها...القناعة.

في خضم هذه الأزمة -التي نسال الله تعجيل كشفها- لازال على رأس عمله يتقاضى راتباً مقبولاً -إن أحسن التدبير-، ويسكن والحمد لله في بيته من دون أن يدفع الأجرة، ولكنَّ زوجته تريد منه أن يسافر إلى بلد أوربي - كما الآخرين - ثم يُلحِقُها والأولادَ به، لعلهم ينعمون بمزايا السكنى في تلك البلاد، ومع أنه وحيد والديه فهو عازم على السفر قريباً... القناعة.

في حفلة العُرس قدّموا طعامَ العشاء على مائدةٍ مفتوحة، ذهب ليملاً الطبقَ بكمياتٍ كبيرة وأنواع كثيرة من الطعام لم يستطع إكمالها لأنها فوق الاستطاعة، فترك في الطبق الكثير من الطعام الذي لن يستفيد منه غيره... القناعة.

اشترى لها زوجها ثوباً يتناسب مع دخله لتحضر به حفلَ زفافِ قريبتها، وذهبتُ الحفلَ مسرورةً ولكنها عادت مقهورة لأنها وجدت الكثيرات غيرها يرتدين ماهو أجمل من ثوبها، وباتت ليلتها معاتبةً زوجها نادبةً حظّها متألّمةً لمصاحبها... القناعة.

القناعة لغة: هي الرضا، واصطلاحاً: هي الرضا بما قسمه الله لك.

وقيل: هي الاكتفاء باليسير.

وقال الجاحظ: هي الاقتصار على ما سَنَحَ من العيش، والرضا بما تسهّل من المعاش.

أيها الإخوة:

جُبِلَ الإنسانُ على حُبِّ الخير لنفسه والحرص على أن لا يفوته منه شيء، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً، قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] والخير: هو المال هنا.

وفي هذه الجبلة كمالٌ إذ بهذا الحرص وهذا الحب يبحث الإنسان عن مصالحه ويحقق بقاءه، غير أن الدّين السماوي يأتي ليُخَلِّصَ الإنسانَ من الشوائب والعلائق التي تعلق بفطرته وجبلته فتريدها إن بقيت بها عالقة.

فعندما يتحول الحرص إلى جشع ونهم وفجع وتغني زوال النّعم عن الآخرين، وعندما يتحول حُبُّ المال إلى انتهاب وسلب وقلق وتصارع على متاع الدنيا، تأتي الشريعة لتعيد الأمر إلى نصابه وتدعو

الإنسان إلى القناعة والرضا بما قسم الله، ليرتاح قلبه ويطمئن فؤاده ويسلم الآخرون من شرور جشعه وطمعه.

فمن ملك القناعة عاش في راحة بال، وطمأنينة نفس، وانشرح صدر، ومن فاتته القناعة كان كالذي يأكل ولا يشبع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنْ الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ» [البخاري ومسلم].

وروى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ».

قال الشراح: في هذا الحديث دلالة على عنوان الفلاح بجمع ثلاثة أمور:

أولها: الإسلام فعليه مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب.

وثانيها: حصول الرزق الذي يكفيه ويكف وجهه عن سؤال الخلق.

وثالثها: أن يقنعه الله تعالى بهذا الكفاف لئلا تشغل نفسه بملذات الدنيا عن إقباله على ربه فيقسو قلبه.

قال سعد بن أبي وقاص لابنه: (يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد؛ وإياك والطمع فإنه فقر حاضر؛ وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه) [رواه ابن عساکر].

أيها الأخوة:

في حجرة صغيرة فوق سطح أحد المنازل عاشت أرملة فقيرة مع طفلها الصغير الذي ربّته على القناعة والرضا، عاشا حياةً متواضعة في ظروف صعبة، لكن أكثر ما كان يزعج الأمّ هو سقوط الأمطار في فصل الشتاء، فالغرفة عبارة عن أربعة جدران من دون سقف ولها باب خشبي، وكان قد مرّ على الطفل أربع سنوات منذ ولادته لم تتعرض المدينة خلالها إلا لزخات قليلة وضعيفة من الأمطار، وفي يوم من الأيام تجمع الغيوم وامتألت السماء بالسحب الداكنة، ومع ساعات الليل الأولى هطل المطر بغزارة على المدينة كلها، فاحتمى الجميع في منازلهم، أما الأرملة والطفل فكان عليهما مواجهة موقفٍ عصيب.

نظر الطفل الى أمه نظرة حائرة واندسّ في أحضانها، لكن جسد الأم مع ثيابها كان غارقاً في البلل،
أسرعت الأم الى باب الغرفة فخلعته ووضعت مائلاً على أحد الجدران، وخبّأت طفلها خلف الباب
لتحجب عنه سيل المطر المنهمر.

نظر الطفل الى أمه في سعادة بريئة، وقد علت على وجهه ابتسامة الرضا، وقال لأمه: ماذا يا ترى
يفعل الناس الفقراء الذين ليس عندهم باب حين يسقط المطر.

لقد أحسّ الصغير في هذه اللحظة أنه ينتمي الى طبقة الأثرياء ففي بيتهم باب.

أيتها الأخت الفاضلة:

إذا كنتِ تسكنين مع زوجك في بيت متواضع، فاحمدي الله وارضي فإن أناساً يبيتون لأمأوى لهم.
إذا كنتِ ترتدين نعلًا مهترأة، فاحمدي الله وارضي فإن أناساً فقدوا أقدامهم.
إذا كنتِ تجدين كسرة خبز وشيئاً من الإدام على عشائك، فاحمدي الله وارضي فإن أناساً باتوا على
أسيرة المشافي، طعامهم أكياس السيروم الملحي والمختلط.

أيها الاخ الكريم:

إذا كنت تجد زوجة تنتظرك عند عودتك إلى البيت، ولكنها ليست بالجمال الذي تتشوف إليه،
فاحمد الله وارض فإن شباباً كثيرين يتمنون الزواج ولا يستطيعون.
إذا كنت تدرس وتتقاضى من والدك مصروفاً أسبوعياً بسيطاً، فاحمد الله وارض فإن أبناءً مثلك
فقدوا آباءهم وأمهاهم وهم مسؤولون الآن عن إعالة إخوتهم الصغار وأخواتهم.
إذا كنت تعمل براتب شهري تراه غير متناسب مع عملك، فاحمد الله وارض فإن غيرك يبحث عن
عمل ولا يجد، ولعلك تبقى في عملك هذا إلى أن تجد خيراً منه.

جاء في كتاب روضة العقلاء لابن حبان:

(القناعة تكون بالقلب؛ فمن غني قلبه غنيت يده، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخط
وعاش آمناً مطمئناً، ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائد نهاية لرغبته).

يقول الإمام الشافعي:

رأيتُ القناعة رأسَ الغنى	فصرتُ بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه	ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنياً بلا درهم	أمرُّ على الناس شبه الملك

ختاماً -أيها الإخوة- بقي لكم عندي أمران، هما الفائدة العملية من هذه الخطبة:

أولهما: كيف يحقق المرء منا في نفسه القناعة.

وثانيهما: هل من تعارض بين القناعة والطموح.

يمكن لأحدنا أن يحظى بالقناعة بأربعة أمور:

أولها- الإكثار من ذكر الله تعالى:

فمن أكثر من ذكر الله قَرَّبَهُ إليه، وعَرَّفَهُ حقيقة الدنيا، وأَعْلَمَهُ أن الله يعطيها من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.

ومن أكثر من ذكر الله فتح عليه من باب الفيض الروحي والإيماني ما يستصغر به نعيم الدنيا بأجمعه. والذي نفسي بيده للحظة أنس بالله تساوي الدنيا وما عليها.

ومن أكثر من ذكر الله زاد حباً لله، والمحِب يرى قليل حبيبه كثيراً، فشكَّره على نِعَمِهِ واستعظم ما أولاه من العطايا والهبات.

ثانيها: النظر إلى من هو أسفل منك في شؤون الدنيا:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**» [البخاري ومسلم].

من هنا كان مناسباً جداً أن تزور مع زوجك وأولادك المساكين في بيوتهم، وكان مناسباً جداً أن تخرج إلى الحج فتجالس عامة الخلق في عرفات وفي أفواجهم وألا تنأى بنفسك عنهم. كل هذا لترى نِعَمَ الله عليك ولتقنع بما رزقك ولترضى بما أعطاك.

ثالثها: صحبة الصالحين وتدبر سيرهم، ورأس الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم:

دخل عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير، قال: فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه.

وإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصاع، وقرظ في ناحية الغرفة، وإذا إهاب معلق (الإهاب: الجلد) فابتدرت عيناى.

فَقَالَ: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**» فقلت: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك.

قَالَ: «يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا» [ابن ماجه].

رابعها: اعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

فمن عرف ذلك وآمن به اطمأنت نفسه، وهدأ باله، وقنع بما أعطاه الله.

وأخيراً: قد يقول قائل كيف نقدر أن نكون طموحين وفي نفس الوقت يكون عندنا قناعة، أو هل

من تعارض بين الطموح والقناعة؟

والجواب: القناعة بمعناها الصحيح لا تتعارض أبداً مع الطموح بمعناه الصحيح، بل إن القناعة هي

صمام الأمان للطموح،

فالطموح أمرٌ جميل يُحَقِّز الإنسان للعمل ولكن لا أحد يضمن أن يُحَقِّق طموحه في نهاية المطاف

مهما عمل وبذل، هنا يأتي دور القناعة المحمود في تنويع ذلك المجهود بالرضا والقبول بما آلت إليه

الأمر، ومن دون القناعة فإن الإنسان إذا لم يجد من عمله كل ما كان يطمح إليه فإنه يصاب

بالإحباط وتعب الأعصاب ويفقد الرضا والثابرة والصبر على تكرار المحاولة.

فالقناعة السليمة هي التي تكون بعد بذل الجهد كله وليست التي تكون بديلاً عنه.

اللهم أغننا بحلالك عن حرمك وبطاعتك عن معصيتك وارزقنا القناعة والرضا بما رزقنا.

والحمد لله رب العالمين